

المنهج الجدلي

ماذا يعني المنهج الجدلي؟

الجدل كلمة إغريقية تعني لغويًا: "المحادثة أو الحوار" وهي تعبر عن صراع الأفكار المتناقضة. أما اصطلاحًا، فعرفت في القديم على أنها: "فن إدارة الحوار والمناقشة أو حوار يرتفع به العقل من المحسوس إلى المعقول، أو استدلال ينطلق من المتناقضات ليصل إلى عملية تركيبية".

أما حديثًا، فلها معنيين: الأول عام مدلوله أن الجدل "علم يتناول القوانين العامة التي تتحكم في سير الطبيعة وتطورها في المجتمع وتحولاته". أما الثاني، فهو خاص ومعناه: "المنهج الذي يدرس التناقضات والتفاعلات والتداخلات المتبادلة القائمة في ماهية الأشياء ويؤكد على مبدأ التطور الذاتي للأشياء".

الأساس الفكري للمنهج الجدلي:

يقوم المنهج الجدلي على أساس فكري فلسفي يرى الظواهر الاجتماعية والانسانية مترابطة ومتداخلة وهي في حالة صراع وتناقض يدفعها للتطور والتغير من شكل لآخر. كما يستند على فناعة منهجية رافضة لفكرة أنّ المنهج الاستقرائي والاستنباطي يصلحان لدراسة وفهم مختلف الظواهر. ومن هنا فالمنهج الصحيح هو المنهج الجدلي الذي يعتبر تركيب بين المنهجين.

المنهج الجدلي في علم الاجتماع:

تعد الديالكتيكية طريقة تحليلية تدرس المجتمع باعتباره عملية ديناميكية، في تطور مستمر، تحركها التناقضات والصراعات. وهي تتجاوز مجرد الملاحظة لفهم الظواهر الاجتماعية من خلال التناقضات (الطرح/الطرح المضاد) وحلها (التوليف).

أسس المنهج الجدلي في علم الاجتماع:

1- الحركة والتغيير: على عكس الرؤية الساكنة، ترى الديالكتيكية أنه لا شيء ثابت. فالهياكل الاجتماعية في حالة تدفق مستمر.

2- التناقضات الاجتماعية: يُنظر إلى المجتمع على أنه مجموعة من القوى المتعارضة، لا سيما الطبقات الاجتماعية (صراع الطبقات) أو العلاقات بين القوى الإنتاجية والهيكلي الاجتماعي.

3- التفاعل المتبادل: تحلل الديالكتيك كيفية تأثير العناصر المتعارضة على بعضها البعض، مثل البنية التحتية (الاقتصاد) والبنية الفوقية (الأفكار، الثقافة).

4- التجاوز (التوليف): الصراعات ليست مدمرة فحسب، بل تؤدي إلى شكل اجتماعي جديد يدمج التناقضات السابقة ويتجاوزها.

رواد المنهج الجدلي في علم الاجتماع:

يقوم الفمنهج الجدلي في علم الاجتماع على فكرة "أن الواقع الاجتماعي قائم على الصراع والتناقض والتغير المستمر". ومن أبرز رواده:

• كارل ماركس: يُعد المؤسس الأساسي للمنهج الجدلي في علم الاجتماع. استخدم الجدل (الديالكتيك) لفهم الصراع بين الطبقات الاجتماعية، خاصة بين البرجوازية والبروليتاريا، واعتبر أن هذا الصراع هو محرك التاريخ.

- **فريدريك إنجلز**: شريك ماركس، ساهم في تطوير الفكر الديالكتيكي وتطبيقه على تحليل المجتمع والاقتصاد، خاصة في إطار ما يُعرف بالمادية الجدلية .
- **هيجل**: فيلسوف ألماني وضع الأسس الفلسفية للجدل (الأطروحة، نقيضها، التركيب)، رغم أن جدله كان مثاليًا، لكن ماركس أعاد توظيفه بشكل مادي .
- **جورج لوكاتش**: مفكر ماركسي طوّر المنهج الجدلي في علم الاجتماع، خاصة من خلال مفهوم الوعي الطبقي وإعادة الاعتبار للذات في التحليل الاجتماعي .
- **أنطونيو غرامشي**: ساهم في تطوير الجدلية عبر مفهوم الهيمنة الثقافية، مبررًا دور الأفكار والمؤسسات في الحفاظ على السلطة .
- **جورج غورفيتش** لم يكن "رائدًا مؤسسًا" للجدلية كمنهج في التحليل السوسيولوجي، بل مجددًا ومطورًا لهذا المنهج داخل السوسيولوجيا، ومن أبرز أوجه التجديد التي أدخلها فكرة الجدلية المتعددة. فعلى خلاف الجدلية الماركسية التي تركز على الصراع الطبقي الثنائي، قدّم غورفيتش تصورًا أوسع سماه بالجدلية المتعددة أو **الديالكتيك التعددي**. وهو الجدلية المتأتية من فكرة أنّ المجتمع ليس مجرد صراع طبقي ثنائي، بل شبكة معقدة من العلاقات والتوترات (اقتصادية، قانونية، ثقافية...)، وكلها تتفاعل في نفس الوقت. كم أن التغيير الاجتماعي لا يتوقف فقط على العامل الاقتصادي كما يرى ماركس. وإنما التغيير ناتج عن تداخل عدة قوى اجتماعية.
- ومن هنا استعمل الديالكتيك لفهم المجتمع كواقع **حي ومتغير باستمرار**، حيث توجد تناقضات، لكن أيضًا أشكال من التوازن والتكامل.

الخطوات الإجرائية للمنهج الجدلي:

- كطريقة عملية منظمة لتحليل الواقع الاجتماعي يمكن القول أنّ المنهج الجدلي يقوم على: فكرة أساسية: دراسة الظاهرة من داخل حركتها، تناقضاتها، وتحولاتها عبر الزمن.
- وخطوات إجرائية كالتالي:
- **تحديد الظاهرة كعملية ديناميكية بدل التعامل مع الظاهرة كشيء ثابت**، ننظر إليها كـ"سيرورة" (مثلاً: البطالة، الحراك الاجتماعي، التعليم...).
- **كشف التناقضات الداخلية** وذلك من خلال التساؤل: ماهي القوى المتعارضة ضمن الظاهرة موضوع البحث؟ فمثلا لما يكون موضوع التحليل أو البحث هو التعليم، ينبغي أن نقف على حقيقة التعارض القائم بين "تكافؤ الفرص" من جهة وبين إعادة إنتاج الفوارق الاجتماعية. وسوف تكون هذه الملاحظة بمثابة منطلق للتحليل.
- **ربط الظاهرة ببنيتها الكلية** لا ندرس الظاهرة (التعليم) بمعزل، بل داخل سياقها (اقتصادي، سياسي، ثقافي). ما يحيلنا إلى الخطوة الرابعة،
- **تحليل التاريخ والتطور**: كيف نشأت الظاهرة؟ كيف تطورت؟ ما هي التحولات التي مرت بها؟ ..
- **تتبع آليات التغيير (من التناقض إلى التحول)** فنحاول فهم: كيف تتحول التناقضات إلى تغييرات فعلية؟ مثلاً: هل تؤدي الصراعات إلى إصلاح؟ إلى ثورة؟ إلى إعادة توازن؟

- استخدام أدوات ميدانية بشكل جدلي: بمعنى استخدام الأدوات المعروفة في لدى المناهج الأخرى (مقابلات، ملاحظة، تحليل وثائق..) لكن بطريقة جدلية خاصة عند تفسير النتائج، بحيث نسعى إلى بناء تفسير تركيبى يركز على أوجه الصراع والتوتر لا على عناصر الإنسجام والتوافق.

المراجع:

- جان فرانسوا دورتيه، معجم العلوم الإنسانية، تر: جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع كلمة، ط2، بيروت، 2011.
- إمام عبد الفتاح إمام، المنهج الجدلي عند هيغل دراسة في منطق هيغل، دار التنوير، ط2، بيروت، 2007.
- جوردون مارشال، موسوعة علم الاجتماع، تر محمد الجوهري وآخرون، المجلد 2، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط1، 2000.
- Abbé Louis, MPALA MBABULA, La dialéctique : D'HERACLITE D'EPHESE A GEORGE GURVITCH, Ed, MPALA, 2001.
- Evariste TSHISHIMBI KATUMUMONYI Le paradigme dialectique dans la méthodologie de recherche en sciences sociales, L'HARMATTAN, 2017.